

الشافعي اديباً

بقلم
حبيب الراوي

منشور ١٩٦٨

الشافعى أديباً

بقلم : حبيب الراوى

كلية التحرير

انطبق فى أذهان الناس أن الفقيه يكون زميتاً وقوراً ، ويقترن هذا بالابتعاد عن النكتة والنادرة لديهم ، ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على الجميع ، فإن هناك من الفقهاء من اوتي من خفة الروح وظرافة المنطق وبراعة النكتة شيئاً غير يسير •

فإن روح الظرف والدعابة لم تفارق الكثيرين من الفقهاء الذين ظهروا فى ذلك العصر أو قبله من العصور ، فقد نصح أحدهم ابنه أن يتعد عن التصوف لانه ثقیل الروح ، وسأل رجل (الشعبي) وهو من مشاهير الفقهاء :

هل يجوز أن تأكل الذباب ؟ فأجابه : اذا كنت تشتهيہ فكله • ودخل رجل على (الشعبي) وكان جالسا مع امرأة ، فقال : أیکما الشعبى ؟ فأشار الشعبى الى المرأة وقال : هذا •

وانه يطول بنا المقام لو أردنا أن نستوفى ما ورد من أقوال للفقهاء والمتكلمين من هذا القیل • لقد كان من هؤلاء محمد بن ادریس الشافعى ، صاحب المذهب المعروف فقیها فى الدين وكان أديبا امتاز ببراعته النادرة وسرعة الحاطر وحضور البديهة ، ومن ذلك انه كانت عنده امرأة يحبها كل الحب ، ولكنها كانت تبدى له الصدود وتظهر الجفاء ، فكان كلما رآها أنشد :

ومن البلية أن تحب فلا يحبك من تحبه
فتقول هي :

ويصد عنك بوجهه وتلج أنت فلا تغبه^(١)

وفي مجلس من مجالسه ، وكان اصحابه ملتفين حوله ، يتطارحون
الحديث في الفقه ، ويتناقلون أفانين القول ، إذ أقبل رجل وبيده رقعة سلمها
الى الشافعي ، فقرأها وابتم ثم كتب عليها شيئاً لم يخبر الحاضرين بمحتواه
فتناولها الرجل وانطلق في طيته ، فقام الربيع بن سليمان يعدو أثره حتى
أدركه ، فسأله عن محتوى الرقعة وما كتبه الشافعي على ظهرها ، فإذا فيها :

سل المفتي المكي هل في تراور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

وكان جواب الشافعي في أسفل الرقعة البيت التالي :

أقول معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جراح^(٢)

وروى ياقوت في مكان آخر من كتابه : أن رجلاً جاء الى الشافعي

برقعة مكتوب فيها :

سل المفتي المكي من آل هاشم إذا اشتد وجد بامريء كيف يصنع ؟

فكتب الشافعي :

يداوى هواه ثم يكرم وجده ويصبر في كل الامور ويخضع

فأخذها صاحبها ، ثم أعادها مكتوباً عليها :

فكيف يداوى والهوى قاتل الفتى وفي كل يوم غصة يتجرع

فكتب الشافعي :

فان هو لم يصبر على ما أصابه فليس له شيء سوى الموت ينفع^(٣)

(١) آداب الشافعي لابي حاتم الرازي .

(٢) معجم الادباء ٣٠٦/١٧ .

(٣) ياقوت ٣١٩/١٧ .

تلك طرف من نوادر محمد بن ادريس ، الذي بدأ حياته بتعلم
الرمي فبرع فيه كل البراعة ، حتى كان يصيب من كل عشرة عشرة (١)
ثم اتجه الى العربية وعلومها ، ثم الى الفقه فكان فيه نسيج وحده وواحد
عصره . ويبدو انه رأى أن يأخذ العربية عن الاعراب في البادية وفي هذا
الصدد ، يحدث نفسه « ... » ثم انى خرجت من مكة فلزمت هذيل في
البادية ، أتعلم كلامها ، وأخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم
سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وانزل بنزولهم ، فلما رجعت الى مكة
جعلت أنشد الأشعار ، واذكر الآداب والأخبار ، وإيام العرب فمر بي رجل
من الزبيريين من بنى عمى فقال لي : يا أبا عبد الله عزّ عليّ ألا يكون مع
هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون سدت ، أهل زمانك ، فقلت :
فسن بقي نقصد ؟ فقال لي : مالك بن أنس ، سيد المسلمين يومئذ ... » (٢)
وذكر ياقوت في مكان آخر من معجمه حديثا منسوبا الى مصعب بن عبد الله
ابن الزبير قريبا مما ذكره الشافعي في مقاله هذه ، وقد شخص الى العراق
بعد أن درس على مالك ، فانقطع الى محمد بن الحسن ثم جاء الى المدينة (٣)
وبعد أن وعي الشافعي الكثير من العلماء والاعراب ، أخذ يدون
ما وعاه وما سمعه على العظام والاكتاف ويضعها في حجاب خاصة ، حتى
امتألت عدد من هذه الحباب (٤) .

وقبل أن يتفرغ الشافعي للفقه والحديث ، صار علما في اللغة وفارسا

(١) آداب الشافعي ٢٣ .

(٢) ياقوت ٢٨٥/١٣ .

(٣) حلية الاولياء ٧٣/٩ والتهذيب للنويري ٤٦/١ .

(٤) ياقوت ٢٨٣/١٧ .

مبرزا فيها لا يشق له غبار ، فقد شهد له ابن هشام ، وكان ثقة ، وممن أقاموا صرح العربية ، اذ قال : « ان الشافعي ممن تؤخذ عنه اللغة (١) » . وانه كان عربى النفس واللسان (٢) . وقال ابن سريج « ما رأيت أحدا أفصح ولا انطق من الشافعي (٣) » .

وفي رواية أخرى انه قرأ شعر هذيل على الشافعي ، وقال أحد الثقات : « طالت مجالستنا للشافعي فما سمعت منه لحنه قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها (٤) » . وقال الشافعي عن نفسه ، في موضوع الحديث عن شعر هذيل : « ... ما رأيت أحدا أعلم بهذا الشأن مني » وكان يجلس في حلقة اذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن فاذا طلعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فاذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض ، فلا يزالون الى قرب انتصاف النهار ، ثم ينصرف عنهم (٥) . وقد قال يونس بن عبد الاعلى : « وكان الشافعي اذا أخذ العربية قلت : هو بهذا أعلم ، واذا تكلم بالشعر وانشاده ، قلت : هو بهذا أعلم ، واذا تكلم بالفقه قلت بهذا أعلم (٦) » . وكتب عبد الرحمن بن مهدي الى الشافعي وهو شاب أن يضع كتابا في معاني القرآن ، ويجمع قبول الاخبار فيه ، وحجة الاجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من السنة ، فوضع له كتاب « الرسالة » .

- (١) وفيات الاعيان ٤١١/١ .
- (٢) التوالى لابن نعيم الاستربادي ص ٧٧ .
- (٣) المصدر نفسه ص ٥٩ .
- (٤) ياقوت ٣١٢/١٧ .
- (٥) ياقوت ٣٠٤/١٧ .
- (٦) ياقوت ٣٠٠/١٧ .

قال عبدالرحمن : ما اصيل صلاة الا وادعو للشافعي فيها ، وعن مصعب انه خرج الى اليمن فلقى محمد بن ادريس ، وهو مستحضر في طلب الشعر والنحو والغريب ، قال : فقلت له : الى كم هذا ؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك وانصرفت به معي الى المدينة ، الى مالك بن انس واوصيته به ، فما ترك عند مالك الا الاقل ، ولا عند شيخ من مشايخ المدينة الا جمعه ، ثم شخص الى العراق فانقطع الى محمد بن الحسن ، ثم جاء الى المدينة (١) .

لقد كان للشافعي نظرات في النقد ، ومن هذا ما اورده صاحب الاغانى من أن يزيدا أنشد بعض الابيات فقال الشافعي ، وأشار الى بيتين منها ، بانهما مسروقان من شعر الاعشى (٢) .

وقد كان الشافعي معتزاً بنفسه اى اعتزاز ، يصونها ان تبذل ، ويربأ بها أن تذال ، وكان يحس قدرته على حل عويص المسائل ، وكشف غامضها ، والى هذا يشير بقوله :

اذا المشكلات تصدين لي كشفت حقائقها بالنظر
لسان كششقة الارحبي أو كالحسام اليماني الذكر
ولست بامعه الرجال اسائل هذا وذاك الخبر
ولكننى مدره الاصفرين جلاب خير وفراج شر
وقريب من هذا انه دخل أحد المساجد ولم تكن عليه الا خرقة ، فلم يابه به أحد ، فأنار الموقف حفيظته وقال :

علي ثياب لو يباع جميعها بفلس لكان الفلس منهن أكثر

(١) ياقوت ٢٨٢/١٧ .

(٢) الاغانى ١٣٤/٥ .

وفيهن نفس لو يقاس ببعضها
وما ضر نصل السيف أخلاق غمده
نفوس الوري كانت اجل واكبرا
اذا كان عضبا اين وجهه فري (١)

ومن طريف قوله في تعزية احد اصحابه :

انى اعزىك لا أنى على طمع
فما المعزى بباقي بعد صاحبه
من الخلود ولكن سنة الدين
ولا المعزى وان عاشا الى حين
لقد كان الشافعى كريم النفس ، طاهر الذيل ، سريعا فى الجلى ،
لا يتقاعس عن مكرمة ، ولا يتغاضى عن حقوق أصحابه وذويه ، من ذلك
ان صاحبا قال له : ان صاحبك فلان عليل ، فقال الشافعى :
الله لقد احسنت الى وايقظتنى الى مكرمة ، ودفعت عني اعتذارا يشوبه
الكذب ، ثم انشأ يقول :

ارى راحة للحق عند قضائه
وحسبك حقا أن ترى غير كاذب
ويثقل يوما أن تركت على عمد
ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه
وقولك لم اعلم وذاك من الجهد
يعيش سيدا يستعذب الناس ذكره
وصاحبه الادنى على القرب والبعد
وان نابه حق أتوه على قصد (٢)

وقد جال الشافعى جولات موفقة فى ميدان الحكمة ، وذلك انه قد
بلا الحياة بما فيها من خير وشر ، فعجم عودها ، وسبر غورها ، وادرك
ما تنطوى عليه من بهرج خادع ، وسراب زائف ، وبرق خلب ، فرأى انه
ليس ثمة أحد احق بالثقة من نفسك دون غيرها ، وان كانت لك حاجة فلا
تسأل الا معترفا بقدرك .

(١) ياقوت ٣١٩/١٧ .

(٢) ياقوت ٣١٩/١٣ .

ما حك جلدك مثل ظفرك . فتول أنت جميع امسرك
 واذا بليت بحاجة . فاقصد لمعترق بقدرك (١)
 ورأى أن افشاء السر الى الصديق انما هو ضياع لذلك السر ، فكيف
 نبغى من غيرك ان يصون سرا عجزت عن كتمانها ، لذلك فانها الحماقة ان
 تفتش الاسرار حتى للاصدقاء .

اذا المرء افشى سره لصديقه . ودل عليه غيره فهو احمق
 اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه . فسر الذي اودعته السر أخيق
 ورأى الشافعي الاقدار وهي تعبت بالناس ، وان الحياة لا منطق لها
 فلا تسير على قياس مطرد ، فالخط هو الذي يقرب البعيد ويبعد القريب ،
 وهو الذي يملق العاقل ، ويفتح الابواب المغلقة للاحمق ، ومن هنا كان
 عيش الاحمق رضا ، وعيش اللبيب يؤسا وشقاء ، وذلك دليل القضاء .
 ان الذي رزق اليسار ولم ينل . أجرا ولا حمدا لغير موفوق
 الجدد يدنى كل امر شاسع . والجدد يفتح كل باب مغلق
 فاذا سمعت بان مجدودا حوى . عودا قائم في يديه فصدق
 واذا سمعت بان مجدودا أتى . ماء ليشربه ففاض فصدق
 لو أن بالحيل العني لوجدتني . بنجوم أرجاء السماء تعلقي
 ومن الدليل على القضاء وكونه . يؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق (٣)

والشافعي حين يرى هذا التناقض في الحياة ، لا يحمله ذلك على
 الهرب منها كما فعل حكيم المعره ، ولا على الحق عليها كما فعل المتنبي ،
 ولكنها تؤدي به الى التسامح والعفو عن من يسيئون اليه ، انهم يغمطون حقه ،

(١) و(٢) الشذرات ١١/١٢ .

(٣) الشذرات ١١/٢ .

المهم المحتوم

فالرجل مؤمن ، ولا يريد « أن يسيء محمداً في أمته »
من نال مني أو علقت بذمتي ابرأته الله شاكر متـــه
أأرى معوق مؤمن يوم الجزا أو أن اسوء محمداً في أمته (١)
وخير ختام نعطر به ذكرى هذا العبقري تلك الآيات الرائعة التي
قالها حين دخل عليه المزني ، وهو في مرض موته فسأله كيف أصبحت ؟
قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، والاخوان مفارقاً ، ولكأس المنية شارباً ،
وعلى الله جل ذكره وارداً ، والله ما أدري روعي تصير الى الجنة ام الى
النار ، فاعزينا ، ثم بكى ، وانشأ يقول :

فلما قسا قلبي وضافت مذاهبي جعلت رجائي نحو عفوك سلماً
تعاضمني ذنبي فلما قرنته بعفوك ربي كان عفوك اعظماً
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرماً
فلولاك لم يقدر بابليلس عابد فكيف وقد اغوى صنيعك آدماء
والى الشافعي ينسب البيت التالي :-

ولولا الشعر بالعلماء يزري لكنت اليوم اشعر من لبيد
وقد انطوت صحيفة هذا العبقري سنة ٣٢٧ هـ وكان عمره
اربعة وخمسين عاماً . وبموته هوى علم من اعلام الفكر والادب ، وانهد
طود شامخ من دعائم الاسلام ، وانطفأ مصباح طالما اضاء للسارين الدروب .

(١) الشذرات ١١/٢ .